الطّفولة و مورفولوجيا الوعي الثّوريّ في الرّواية الجزائريّة
مقاربة سوسيوتاريخيّة لثلاثيّة محمد ديب

د/عبد الرحمان بن يطو

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

تُعدّ ثُلاثية محمد ديب (الدّار الكبيرة ، الحريق ، النّول) ، رواية طفوليّة بامتياز ؛ راهن الكاتب من خلالها على عنصرين أساسيّين تقاسما البطولة منذ البداية هما : الطفولة كتيمة إنسانيّة من جهة وعبقرية المكان من جهة أخرى ، ومن خلال تفاعل هذيْن العنصريْن حشَد الكاتب مشاهد مأهُولة بالشّقاء الإنسانيّ في ظلّ الاحتلال الفرنسيّ ومعاملاته الجائرة للجزائريّين ،فكان الطفل (عمر) نُبوءة حقيقيّة للجزائر القادمة ، وكانت دارالسبيطار رمزيّة ديناميّة للواقع الجزائريّ القابل للانفجار .. وللفعل الثّوريّ الذي سيحرق لهيبُه عظام الاستعمار.

Mohamed Dib's trilogy (The Large house(Ed-Dar el-Kabira), the Blaze(El-Hariq), the Loom (En-Noul)) is considered a distinctly "childish" novel. Through which the author staked the claim on two different items that shared dominance which are : the childhood that is impermeable to the geniality and humaneness of the place, and through the interaction of these two elements, the author mobilized scenes inhabited by human suffering under the French occupation and its brutal treatment of the Algerians. Therefore the child (Omar) was a true prophecy for the coming Algeria, and "Dar Sbitar" was a dynamic symbolism for an Algeria that is potentially explosive…for the rebellious act which its flames would burn the occupation's bones.

في الخمسينيّات من القرن الماضي وإبّان الاحتلال الفرنسي للجزائر ظهرت ثلاثيّة محمد ديب، التي تتألف من ثلاثة أجزاء هي: (الدار الكبيرة) و (الحريق)و (النول) ،ويعتبر هذا حدثاً أدبيّا في تاريخ الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسيّة ؛ وذلك في اعتقادي لعدة أسباب هي :

- توظيف اللغة الفرنسيّة كغنيمة حرب ؛في مواجهة السياسة الاستعماريّة الجائرة .
- فضح ممارسات الشرطة الفرنسيّة في قمع الجزائريين البسطاء والتّضيّيق على حقهم في الحياة .
- تعدّ هذه الرواية نبوءة حقيقيّة للثورة التحريرية من خلال شخصية الطفل (عمر) الذي يشكّل علامة لمستقبل الوعي الجزائريّ القادم و السّاخط على الوجود الاستعماريّ .

و للإشارة فإنّ المشهد البانورامي الطاغي على سينوغرافيا الرواية هو المكان بكلّ مواصفاته الجزائرية إبّان الاستعمار الفرنسيّ من فقر وبؤس وحرمان ، ومضايقات من طرف السلطات الفرنسيّة وشقاء إنسانيّ يوميّ وعنصريّة بين الجزائريّ المُستعمَر والفرنسيّ المُستعمِر لعبت فيه عبقرية المكان [1] دورا ديناميا من خلال دار السبيطار التي تعجّ بالضيق والضجر والفقر والمناوشات اليوميّة الناتجة عن الإحباط النّفسي والاجتماعي الذي تعيشه العائلة الجزائريّة ولم يفلت من هذا الوضع البائس أيّ جزائري مهما كان عمره ، حتى والدة عيني العجوز القعيدة و الطاعنة في السنّ والطفل عمر وأختاه عيوشة ومريم ووالدتة الأرملة عيني التي ارتبطت صورتها بالشقاء اليومي ، ويضاف إلى ذلك الاحتكاك والمشاجرة مع الجيران ببعضهم نتيجة ضيق المكان ، أمّا الصّورة الزّمنيّة التي تؤطّر المكان ،فهي تنبثق من فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر وممارساته القمعيّة الظالمة تجاه الجزائريين البسطاء؛ وهي الفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الثانية . " كانت دار سبيطار تعيش حياة طائشة عمياء، ، حياة يهزها الحنق والغضب والخوف في كل لحظة، كل كلمة تقال في هذه الدار فهي شتيمة أو نداء أو اعتراف. وكان أهل الدار يحتملون ما يحدث فيها من اضطرابات في مذلة. إن الحجارة في هذه الدار تعيش أكثر من القلوب." [2]

لكن محرّك الأحداث في هذه الرواية ينهض على عنصرين أساسيين هما :

أولا) ـ الشّخصية المركزيّة في الرواية التي يضطلع بدورها الطفل (عمر) ، وهو يحمل رمزية الطفولة الجزائرية المضطهدة في ظلّ الاحتلال الفرنسي ،التي كان لها ما يحفّزها في الرواية على اكتساب وعي جزائري جديد مناهض للاستعمار من خلال احتكاكه بالمناضل(حميد سراج) واجتماعاته السّريّة مع المناضلين الراغبين في تغيير الوضع في الجزائر ، وما درْس الأخلاق حول موضوع "الوطن " الذي سمعه الفتى عن الأستاذ حسن في المدرسة إلاّ إضافة جديدة تضاف إلى ملاحظاته المبكرة على الحياة العامة وما فيها من فوارق اجتماعيّة وعنصرية بين الأوربيين والجزائريين ، وإذا كانت الشخصية حاملة لهوية فضائها فإن هذا ما ينسحب على الطفل (عمر) ولكن بعد أن تكمتل أجزاء الصورة في نهاية الثلاثية .إذْ أنّ الشخصية الروائيّة لها مجموع من الدّوال على حدّ تعبير فيليب هامون " بأنها مرفيم فارغ ، أي بياض دلالي لا تحيل إلاّ على نفسها ، إنّها ليس مُعطى قبليا وكليا ، فهي تحتاج إلى بناء ، بناء تقوم بإنجازه الذات المستهلكة للنص زمن فعل القراءة. هذا المرفيم الفارغ يظهر من خلال دال لا متواصل ويحيل على مدلول لا متواصل . فكما أنّ المعنى ليس له معطى في بداية النص ولا في نهايته ، وإنّما يتمّ الإمساك به من خلال النّص كلّه ." [3] ، وقد يكون فيليب هامون قد استوحى هذا المفهوم الجديد من جهود العالم اللساني ف . دي سوسير الذي عرف العلامة اللسانيّة بأنها دال ومدلول ، فعلا أنّ التقاط الصور السلوكيّة والقوليّة والمزاجيّة والنّفسيّة والفكريّة عن الشخصية الروائيّة ، تقتضيها عمليه مُعقّدة تضطلع بها اللغة الروائيّة التي تصنعها في الأخير عبقرية الكاتب وتحوّلها إلى صورة مُتَمَثّلة في ذهن المتلقي [4]

ثانيا) ـ استحداث دار السبيطار كفضاء عقابي للجزائريين ، وهذا ما أقرّه عمر ذات مرة " كان عمر قد انتهى إلى تشبيه دار السبيطار بالسجن " [5] ، إذْ استطاع محمد ديب بإعادة انبناء المكان لغويا وتأثيثه بكلّ مظاهر البؤس والشقاء حتى يتناسب مع الدور الذي أسند

إليه في الرواية وهذا ما يعرف عند جيرار جينيت بـ(Spatialité du Langage)[6] وإن كنّا بصدد الحديث عن فضاء هو في الحقيقة نتاج تراكمات وخبرة مجتمعية وثقافية عبر التاريخ ؛ حرص الكاتب في نفس الوقت على أن يوليه اهتماما خاصا تضاف إليه أفكار الكاتب وتصوّراته ، كواقع خارج الرواية في علاقته بالمتخيل (Imaginaire) وهذا انطلاقا من مفهوم الرؤية (Vision de L'espace) ، إذْ يرى غريماس " أنّ الفضاء الروائي مؤطر وفق عناصر متقطعة غير دائمة لكنّها مبثوثة وممتدة في نظام هندسي متميّز يساهم في وصف التّغيّر والعلاقات المدركة والمحسوسة بين العناصر الفاعلة داخل الخطاب السّرديّ . "[7]

فهو مكان لا تتوفر فيه شروط الحياة الكريمة ؛حيث يقع في أحد الأحياء الشعبيّة بمدينة تلمسان و دار سبيطار واقعة بين طرق ضيقة صغيرة ملتوية كأغصان الأشجار الملتفة، ويتّصف هذا المكان بالضيق والفقر والمُلاسنات و الصدامات، والتّحرّشات والسّب والشّتم فيما بين قاطنيه زد على ذلك البطالة والفراغ التي جعلت من المكان محلّ شبهة عند رجال الشّرطة فتكرّرت مداهماتهم للدار بسبب أو بدون سبب .

و بما أنّ لكلّ مكان سرده ؛ خاصة إذا كان المكان له حضور اجتماعي وتاريخي في وجدان الجماعة التي تشغله ؛ ومن هنا راهن محمد ديب من الوهلة الأولى على شخصية الطفل عمر التي لعبت دورا محوريّا في أحداث الرواية ، فهو لم يتجاوز سنّ العاشرة من عمره، استطاع الكاتب من خلال هذه الشخصية أن يصوّر تقاسيم الطفولة الجزائرية في ظلّ الاستعمار لذلك أمعن في توصيف شخصيته عمر الداخلية والخارجيّة بل وتسلّل إلى نبض مشاعره المضطهدة وحياته التي تتقاسمها دار سبيطار والحي والمدرسة والمقهى حيث يجتمع حميد سراج مع رفاقه من المناضلين ، فاستطاع الطفل أن يحدّد علاقاته مع محيطه وأن يرسم صورة صحيحة لبلاده التي ظلّت مشوّهة ومضلّلة في وعيه ؛ ساهمت في تشكيلها البرامج التعليمية الاستعمارية الحاقدة الموجّهة إلى التّلاميذ في المدرسة ،وفي الحياة

الاجتماعية العامة المأهولة بالفقر والبؤس والحرمان،وما سؤال الأستاذ حسن عن الوطن إلاّ الشرارة التي أيقظت في الطفل هواجسه النائمة " . من منكم يعلم معنى كلمة : الوطن .. رفع إبراهيم بالي إصبعه ، وهو أحد التلاميذ المعيدين قائلا :

. فرنسا هي أمّنا الوطن [8]

وقعت الإجابة على مسامع التلاميذ موقع الاستهجان ، ومنهم الطفل عمر الذي راح يردّد في نفسه قائلا : " فرنسا عاصمتها باريس. إنه يعرف هذا . الفرنسيّون الذين يراهم في المدينة ، قادمون من تلك البلاد . وإذا أراد أحد أن يذهب إلى هناك أو أن يعود من هناك ، عليه أن يجتاز البحر ، أن يركب باخرة .. البحر ، البحر الأبيض المتوسط . إنه لم ير البحر في حياته ، ولا رأى باخرة . ولكنه يعرف : يعرف أنّ البحر مساحة كبيرة من الماء المالح ، وأنّ الباخرة خشبة كبيرة عائمة . وفرنسا ، رسم ملون بعدة ألوان . ولكن كيف تكون تلك البلاد البعيدة أمه .. إنّ أمه في البيت .. إنها (عيني) وليس له أُمّان اثنتان .(عيني) ليست فرنسا . ليس ثمّة أشياء مشتركة بين أمّه وفرنسا . لقد اكتشف عمر الكذبة . فرنسا ليست أمّه ، سواء أكانت هي الوطن أم لم تكن هي الوطن " [9]

ولذا تعدّ هذه الرواية في نظر كثير من النّقاد بأنها رواية الطّفولة الجزائرية إبان الاستعمار لما تتوفّر عليه من خيطيّة في تطوّر مختلف مراحل أحداثها المتصلة بشخصية الطفل عمر .

فقد اجتهد الكاتب في تصميم دار السبيطار حتى تتطابق و هوية الشخصيات التي تسكنها ، فهي كثيرة الغرف التي تولّد انطباعا على حالة سكانه البائسة، تقيم فيها عائلات جزائرية كثيرة ،قاسمها المشترك هو الفقر والحرمان يمتلكها أحد الملاّك الصغار المتغطرسين والذي يعرف عند أهل الدار بـ (عمي صالح) [10] ففي هذا المكان البائس يعيش الطفل عمر مع أسرته التي يطوّقها اليتم والفقر والجوع ، وتتكوّن من الأم عيني الأرملة السّاخطة على كلّ شيئ في الحياة ، وابنها عمر المضطهد داخل البيت وخارجها وابنتيها عيوشة ومريم المُسالمتين،لا يرتبط عمر بهذه الدار إلا بيولوجيا حين يجوع وحين يريد أن ينام ، لا

غير "والبيت أكثر من منظر طبيعي ، إذْ هو حالة نفسية ، وهو كذلك حتى ولو رأينا صورة له من الخارج ، إنه ينطق بالألفة . " [11] ووجدت الأم عيني نفسها في مواجهة الحياة بكلّ شراستها فهي مَنْ تشقى ليل نهار لتُعيل هذه الأفواه الجائعة بعد أن فقدت السّند المادي ،زوجها الذي مات بمرض صدريّ وبعد سنتين التحق به ابنه البكر جيلالي ،وبنفس المرض " هذا ما تركه لنا أبوك ، ذلك الرجل الذي لا يصلح لشيئ ، ترك لنا البؤس . غيب وجهه في التراب ، وسقطت علي جميع أنواع الشقاء .. الشقاء هو نصيبي طوال حياتي " [12]، ولم تكن عيني مستعدة لاستقبال أيّ ضيف جديد يكون عبئا ثقيلا على أسرتها الضعيفة ، ولكن ما عساها أن تفعل إذا جاء دورها في إعالة والدتها والتكفّل بها ، لأنها ستكلّفها جهدا إضافيا لا تطيقه ، وهنا كانت المفاجأة التي لا ترغب الأم عيني أن تحدث ؛ حين حمل لها أخوها أمّها القعيدة ؛ فصارت عيني أكثر سخطا وتذمّرا من قبل والغريب في أنها تجاهر بذلك دون أيّ تحفّظ (لقد تسلّموها أمس، آواها ابنها ثلاثة أشهر، وجاء الآن دور عيني لتعيلها ثلاثة أشهر أخرى،إنّ الجدة ماما مشلولة . ولكنها محتفظة بصفاء فكرها : إن نظرتها الزرقاء الواضحة لا تزال على حالها القديمة من الالتماع ، حتى لا تكاد تكون نظرة باشة . ومع ذلك فإن عينيها ، رغم ما يشع فيها من بريق الحلم والنبل ، تتجمّدان في بعض اللحظات على تعبير بارد قاس ، وكانت تحيط وجهها الصغير العجوز المتورد النظيف ، بمنديل من شاش أبيض . وكان ينبغي أن تساعد الجدة في كلّ شيئ : في تناول الطعام ، في الالتفات ، في قضاء الحاجات . إلا أن الجميع تخلّوا عنها فبقيت مع أفراد الأسرة رغماً عن عيني". [13]

وتشكّل رواية الحريق معادلا موضوعيّا في الثلاثية فبعد أن تحدث محمد ديب عن أوضاع الجزائريين في المدينة ها هو هذه المرّة يتحدّث عن شقاء الريف ومعاناة أهله من خلال سكان (بني بوبلان)، حيث الفلاحون البسطاء الذين يعانون من ظلم المستوطنين الأوروبيّين وقهرهم ؛الذين اغتصبوا أرضهم ثم استعبدوهم عليها؛ فعاشوا الجوع والحرمان من أبسط أساسيّات الحياة "هل (بني بوبلان) أفضل ، لأنها من الريف ؟ إنّ المرء لا يدرك أحيانا أن

انتماءه إلى المدينة خير من انتمائه إلى الريف .والحق أنّ انعزال الإنسان في ريفه انعزالا تاما أمر لا قيمة له البتة . ولكن الإسراف في الانحباس بين جدران مدينة من المدن ، ليس خيرا من ذلك فإنما المهم أن يعرف المرء ماذا يريد . فإذا وجد في الريف وفي المدينة على السواء "(14) ، وكأنّ الطفل عمر يريد أن يخرج بمعادلة صعبة مفادها أنّ الحياة في المدينة المكتظة بسكانها وازدحام الحياة فيها، ليست أحسن من الريف رغم بساطة الحياة فيه والهدوء والسكينة ، مادام الداء هو القاسم المشترك بينهما فالاستعمار يعكّر أجواء الحياة ويسمّمها سواء في المدينة أو في الريف ، بمعنى آخر أنّ الحياة مستحيلة في ظلّ الاستعمار والاستعباد ؛ ولم يبق إلاّ حلّ واحد لا يقبل القسمة على اثنين هو الثورة عليه مهما كلّف الأمر لأنّ هذه حقيقة وجوديّة لا مفرّ منها إمّا الحياة في ظلّ الكرامة أو الموت في كنف الشهادة . " والسخط يكبر شيئا بعد شيئ . الريف كله يعيش في جو لا يبشر بهدوء . ومن الناس من يحلف بأغلظ الأيمان أن السجن خير من هذه الحياة ." [15] ولم تغب شخصية عبد الحميد سراج عن المشهد الروائي ففي كلّ مرة يستحضره الكاتب ليشكّل تيمة بين أجزاء الثلاثية لأنه الشخصية الوحيدة التي تمارس العمل السياسي الداعي إلى تغيير الوضع بالثورة ، وجعل منه الكاتب أيضا أنموذجا للطفل عمر الذي لم يكتمل وعيه الثوري والوطني من خلال ما شاهده في المدينة من ظلم وما شاهده في الريف من ظلم وبنفس الأسلوب والأداة ، واندلعت الحرب العالمية الثانية لتعيد صياغة موازين القوى العالمية وفي مقدمتها الدول الاستعمارية بحيث وجدت فرنسا نفسها في عين العاصفة وهدفا إسترتيجيا للجيوش النازية الزاحفة على باريس " الحرب ؟ ما شأننا نحن بها ؟ إنها تنشب في بلاد بعيدة . في فرنسا .. ومن يدري إلى أين تمتد .. إننا نعني بأمورنا ، نزرع خضرنا ، فما صلتنا بما عدا ذلك ؟ [16] ، إنّ حالة من الاحتقان العام والتّذمر تطفح على وجوه الناس ؛ فلم يعد الإنسان الجزائري يحتمل المزيد من الذّل والفقر من ممارسات الشرطة الاستعماريّة ومخالبها السّامة المتمثّلة في المستوطنين الأوروبيين ، وما الإضراب الذي عمّ قرية بوبلان وضواحيها إلاّ مؤشر على استنفاد حالة الخوف من نفوس الجزائريين التي استبدّت بهم طويلا ، وقد يريد

الكاتب من وراء ذلك تحضير المتلقي الجزائري لأمر قادم ، قد يفاجئ المحتلّ الذي تعوّد ألاّ يرى من الجزائري سوى الرضوخ والاستكانة . وما حادثة الحريق إلاّ مصوّغ فنيّ استعاره الكاتب كصورة مستقبليّة للجزائر القادمة ؛ لامناص منها للإفلات من براثن الاحتلال الفرنسي ,وإدارته الجائرة . وهذا ما تعبّر عنه إحدى شخصيات الرواية "وحدّث سليمان مسكين نفسه قائلا :(ما كان للمرء أن يصدّق أبدا أكواخ الفلاحين يمكن أن تحدث هذه النار الجميلة) . وعاد يتصور أعمدة الدخان تنتشر وتتلوى فوق الحريق .إنها أعمدة لا تنتهي ، تعلو السنة رائعة من اللهب . والحقول التي حول الحريق تلتمع التماعا قاتما . كانت الرايات المشتعلة تصفق ثم تتمزق تمزق الصراخ وكان تواثب النيران في خفة يغدو قلق الرجال . نعم قد رأى سليمان ذلك كله بأم عينيه ، ولقد سمع سليمان صراخا وصياحا .. إنه لم يحلم .

لقد شبّ حريق ، ولن ينطفئ هذا الحريق في يوم من الأيام .سيظلّ هذا الحريق يزحف في عماية ، خفيا مستترا ، ولن ينقطع لهيبه الدامي إلاّ بعد أن يغرق البلاد كلّها بلألائه." [17].

إنّ المشَاهد التي تهيمن على رواية (النول)، أكثرها مشاهد طبيعية متكررة كمشهد سقوط المطر اليومي حتى يُخيّل للقارئ وكأن أحداث الرواية تدور في منطقة استوائيّة وليس في مدينة تلمسان "وفجأة أخذت الأمطار تدكّ الفضاء في عناد أقوى ، وهذه المدينة المظلمة الملتمعة ، المختلفة بين جدران أسوارها ، التي تتعرج أزقتها إلى غير نهاية " [18].ومن المظاهر الاجتماعية المتكررة أيضا ، ظاهرة التّسوّل التي تعجّ بها المدينة نتيجة الفقر الذي استبدّ بالجزائريين والسنوات العجاف المصاحبة للحرب العالميّة الثانية " ظلّ المتسولون يضربون في الأرض على غير غاية ، وكأنهم لا يلاحظون هذا الطوفان الذي يبللهم . إنهم يسيرون وقد ماتت منهم الأحداق ، وراحوا يمدون أيديهم بحركة غريزية . إنهم ينبعون من بين المطر المتساقط كامدين مبعثرين ، ثم ما يلبثون أن يعودوا إليه . لكأنّ العدم الرطب كان يتقيؤهم . " [19]، وتتواصل مشاهد المتسولين وما يعانونه من شقاء يومي في

ظلّ الاحتلال من جهة والحرب العالمية من جهة أخرى ، فهذه الفئة الجزائريّة المقهورة تعاني أكثر من غيرها " إن هؤلاء الشّحاذين لا شأن لهم، إنهم لا يثيرون قلق أحد من الناس . (حسنة لله ،حسنة على أرواح موتاكم ، صدقة يا أهل الخير)"[20]

أمّا الحدث المثير في هذا الجزء من الثلاثية هو التحاق الطفل عمر بالعمل الذي لا يطيقه سوى الرجال لما فيه من مشقّة ومسؤولية ، ولم يتحقق له إلاّ بعد أن توسّلت أمّه لصاحب معمل النسيج ، ومن هنا ارتاد عمر الرجولة مبكرا ، وصار يعاشر الكبار في السّن وبالتالي ودّع حياة الطفولة رغما عنه ؛بعد أن تحوّل إلى سند مادي لأسرته الفقيرة التي ذاقت طعم اليتم والفاقة في ظروف زادتها قسوة الحياة في ظلّ الاحتلال الفرنسي شقاء. " دخلت الأم وابنها (..)إلى غرفة مظلمة كان يجلس فيها شخص منتفخ على فراش ، طاويا ساقيه .إن الغرفة الواسعة غارقة في جوّ من الحشايا . وفي الظلّ تلتمع أوان من النحاس التماعا غامضا . أخذت عيني تتضرّع إلى الرجل وتبتهل دون مقدمات ، فكان يصغى إليها من غير أن يتحرك ، ومن غير أن يطرف له جفن ... لم تصل عيني إلى الكلام عن الغرض الذي جاءت من أجله إلاّ بعد ربع ساعة من الزمان ،فلما عرضت على المحسن ماحي بوعنان إنها تلتمس لابنها عملا تنهدت تقول : (هذا اليتيم)،وهي تمسك بكُم عمر الذي ظل واقفا خلفها وفي الوقت نفسه ارتعش أنفها واحمرّ، وأوشكت أن تنفجر باكية . فدمدم الرجل يقول : . أرسليه إلى مصنعي." [21]

تعمّقت تجربة الطفل في الحياة وصار يفهم من شؤونها أكثر من أقرانه الأطفال ؛ فالحياة الصعبة تصنع الإنسان الصّعب ، كان عمر يدرك حجم التضحيات التي تقدمها أمّه اتجاهه واتجاه إخوته فهي تشقى وتكدح ليل نهار رغم ما كان يعانيه منها أحيانا من سبّ وشتم وحتى مطاردة وضرب ؛ رغم ذلك لا يتصور الطفل يوما حياته بدون هذه الأم الجسورة إذْ ذهب به الأمر أحيانا وهو يستعرض مسيرتها مع الشقاء " وحدّث نفسه بقوله : (أفضل أن أموت من أجل أن تعيش أمي)" [22] ، ودّع عمر حياة الطفولة ؛ فهو منذ وطئت قدماه مصنع النسيج لا يحادث إلاّ الكبار، ولا يتعامل إلاّ معهم وأحيانا يذهب إلى المقهى مثلهم إذاً

هو كبير في المصنع وكبير في البيت وكبير في الشارع بحيث هو من يتكفّل بإحضار مستلزمات البيت من طعام وفحم وغيرها ، وفي لحظة غضب تحت تأثير الظروف الاجتماعية القاسية تصرخ عيني في وجه عمر وتنفي عليه صفة الرجولة ؛قائلة له : " . ... ذلك أنك تظن نفسك رجلا .

وعادت تنعته بأنه ليس له قلب ، وبأنه أشبه بالعلقة . "[23]

و يذهب بها الحديث بعيدا وهي تحت تأثير نوبة الانفعال والغضب الذي ينتابها بسبب وأحيانا دون سبب ، " كان يأس عيني ينبع من مصدر آخر ..

قالت مدمدمة :

على هذه الأرض اللعينة ولدنا كما يولد العار ، وأكلنا كما تأكل الحثالات ، وتركنا كما يترك المنبوذون ، حتى خبزنا أسود، كسواد هذا الليل الذي يلفنا بظلامه . " [24] وحتى يذكرنا الكاتب بشخصية حميد سراج الملهمة للطفل عمر؛ جعل الطفل يتذكّره ويرى فيه مالا يراه في غيره من الاختلاف " وفكر عمر بعد ذلك في حميد سراج . لكان صوت شعب بأسره قد سكت ، منذ سجن حميد سراج في معسكر من معسكرات الاعتقال .أصبح المرء لا يرى بعد ذلك إلاّ الجماهير خرساء خائفة ، أصبحت هذه الجماهير على حين فجأة ، تحس بخطر كانت جاهلة به . وازداد حذر الناس . " [25]

إذن هناك مجموعة من العوامل التي ساهمت في تشكيل الصياغة النهائيّة لوعي الطفل عمر يمكن أن نوجزها فيما يلي: . الوعي الثوري يتشكّل في المدن وينفجر في القرى والبوادي ؛ مع ما يصاحبها من ظروف اجتماعيّة قاسية التي عاشها الطفل عمر في أسرة يطوّقها البؤس والحرمان .

. تقرّبه من النشاط السياسي السري للمناضل حميد سراج ، من خلال اجتماعاته الخاصة ومتابعات الشرطة الاستعمارية له ، جعل الطفل يتماس مع الوعي الثوري السّاري مفعوله بين المناضلين الجزائريين .

. السؤال المتعلق بـ(الوطن) الذي طرحه المعلم حسن في المدرسة والذي استفزّ وعيه الطفوليّ ،بحيث أيقظ فيه أسئلة كبيرة أكبر من سنه،لا يعرف إجابتها إلاّ أمثال حميد سراج .

. ذهابه إلى الريف إلى قرية (بوبلان) واكتشاف معاناة الفلاحين والقرويين من سطوة المعمرين على أراضيهم واستغلالهم استغلالا كبيرا مما جعلهم متذمّرين وساخطين على حالهم في ظل الاحتلال .

. بوادر التمرّد في أوساط الفلاحين مؤشر إيجابي؛ هو نقطة تحوّل في الوعي السياسي والوطني الجزائري عند هذه الفئة ، و ما ردة فعل المستوطنين الأوروبيين الوحشية إلاّ دليل على ذلك.

. ظهور الحريق الكبير والمفاجئ في حقول المستوطنين له دلالة استعارية تؤشر بقدوم الثورة التحريرية كمخرج للوضعية الصعبة التي يعيشها الشعب الجزائري .

. اهتداء الطفل عمر إلى حقيقة مُرّة مفادها أنّ مأساة المدينة والريف واحدة تمثل في ظاهرة الاستعمار الجاثم على صدور الجزائريين ، والحائل دون رؤية مستقبلهم الواعد .

. العمل في مصنع النسيج وفي ظروف شاقة مع من هم أكبر منه سنّا جعله يكتشف مرّة أخرى حجم معاناة الجزائريين من أجل تأمين أدنى العيش .

الإحالات :

(1) Le genie du Lieu-3-Michel Bitor,ed.Dela Différence.Paris 2007

(2) محمد ديب ،الدار الكبيرة ، ترجمة سامي الدروبي ، دار الوحدة للطباعة والنشر ، بيروت 1985،ص72

(3) فيليب هامون ،سيميولوجية الشخصيات الروائيّة، ترجمة سعيد بنكراد ،دار الكلام ، الرباط 1990 ،ص9

(4) ينظر : G.Genette.Figure I .ed.Du Sueil.Paris :1966 ,p :107

(5) محمد ديب ،الدار الكبيرة ، م س،ص72]

(6) G.Genette II,ed.Seuil.Paris1969 ,p ;45

(7) Dictionnaire, raisonné de théorie de langage ,Greimas et Courtès,hachette,Paris,1979 P :133

(8) محمد ديب، الدار الكبيرة ، م س ،ص19

(9) محمد ديب،الدار الكبيرة، م س ، ص19

(10) محمد ديب ، الدار الكبيرة ، م س ،ص15

(11) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط 2، بيروت 1984، ،ص86

(12) محمد ديب،الدارالكبيرة ،م س ،ص24

(13) محمد ديب،الدارالكبيرة م س ،ص24

(14) محمد ديب ،الحريق ،ترجمة سامي الدروبي ، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت1985 ، ص138،137

(15) محمد ديب،الحريق ، م س ،ص138

(16) محمد ديب،الحريق،م س ،ص200

(17) محمد ديب،الحريق ،م س ،ص229،228 .

(18) محمد ديب ،النول ، ترجمة سامي الدروبي، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت ، 1985،ص284

(19) محمد ديب،النول ،م س ،ص283

(20) محمد ديب ، النول ،م س ،ص284

(21) محمد ديب النول،م س ،ص285

(22) محمد ديب، النول، م س ،ص29

(23) محمد ديب ، النول ،م س ،ص296

(24) محمد ديب النول، م س ،ص296

(25)محمد ديب ، النول،م س ،ص395